تقديم

عرفت مصر خلال تاريخها الحديث أسلوب النضال السرى وخاصة خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . . ولقد يعزى ذلك – فيما يعزى – إلى أن بناءها الاقتصادى الاجتماعى ونظامها السياسى ووعيها الفكرى كان قد شهد خلال نفس القرن تغيرات واسعة المدى لم يكن لمصر عهد بها من قبل . الأمر الذى أدى إلى بروز قوى جديدة بمثل وأفكار جديدة حاولت أن تتصدى للقوى القديمة التى ظلت تلعب الدور الأساسى طوال فترة الحكم العثمانى . . بل طوال فترة تاريخها الوسيط على امتداده . .

ومن هنا فقد لجأت تلك القوى الجديدة إلى اصطناع أساليب وطرائق متعددة لتحقيق غاياتها بالقدر الذى سمح به نظام الحكم والقائمون عليه . ولما لم تسعفهم تلك الأساليب لجأوا – فيما لجأوا – إلى اتخاذ العمل السرى وسيلة للمقاومة وأسلوباً لتحقيق الأهداف .

فليس مصادفة أن يخرج الحزب الوطنى المصرى الأول من جمعية سرية اتخذت من حلوان مستقراً لها ومجالا للعمل . . فى مواجهة استبدادية الخديو إسماعيل وحاشيته بعد أن كان معظم أعضائه قد وصلوا إليها مرورا بمرحلة أخرى من مراحل العمل السرى عند ما شاركوا فى نشاط المحافل الماسونية المختلفة فى مصر .

كما أنه ليس من قبيل المصادفات أن تتخذ أول نواة لمقاومة الاحتلال البريطانى فى الفترة التى تلت مباشرة نزوله أرض وادى النيل . . العمل الفدائى السرى وسيلة وأسلوبا . وهى «الجمعية الوطنية المصرية» المعروفة «بجمعية الانتقام» والتى كان هدفها تحرير الوطن وطرد الإنجليز من مصر» والتى قبض على أعضائها فى ٢٠ يونية سنة ١٨٨٣ (١) .

كما أنه ليس مصادفة كذلك أن مصطفى كامل – الزعيم الوطنى الذى قاد العمل السياسى فى مطلع القرن العشرين وأسس رسميًا «الحزب الوطنى» فى أواخر عام ١٩٠٧ – كان قد مر – هو وغيره من المصريين – فى بداية مراحل نشاطه السياسى خلال التسعينيات من القرن الماضى بمرحلة من مراحل العمل السرى . . عندما حاول الخديو الشاب عباس حلمى الثانى أن يتصدى للاحتلال وعميده كرومر لافتئاته على حقوقه وسلطاته الشرعية . . فراح عباس حلمى يجمع حوله نفراً من خيرة الشباب الوطنى . . لاستخدامهم فى الوقوف فى وجه الاحتلال .

(١) راجع وثائق الثورة العرابية . محافظ ١٩ – ٣٣ – ٤٠ المودعة بدار الوثائق التاريخية القومية بالقلعة .

وربما كان نفس الدافع هو الذى كان وراء قيام قيادات الحركة الوطنية . . ممثلة فى الحزب الوطنى . . بإنشاء أول جمعية سرية لمقاومة الاحتلال عام ١٩٠٦ التى عرفت باسم «جمعية التضامن الأخوى» والتى كانت النواة التى تخلق منها النشاط السرى فى مصر خلال الربع الأول من القرن العشرين على أقل تقدير . . تلك الجمعية التى ضمت نفراً من خيرة الشباب المصرى وأنشأت لها فروعا متعددة ، كان أشهرها فرع الجمعية بالإسكندرية . وقد قامت الجمعية بتنفيذ أول حادث اغتيال سياسى فى تاريخ مصر المعاصر فى فبراير ١٩١٠ عندما نجح الشاب إبراهيم ناصف الوردانى – عضو الجمعية – فى اغتيال بطرس غالى رئيس النظار لأسباب سياسية خالصة . كما أن الجمعية نفسها هى التى قامت خلال الحرب الأولى بعديد من محاولات الاغتيال . . السياسى شملت رأس الأسرة الحاكمة والنظار المصريين .

وربما نستطيع القول . . دون مبالغة . . أن هذه الجمعية – وإن كان قد انفرط عقدها القديم وشهدت تشكيلا جديدا منذ مطلع عام ١٩١٩ – تعد مسئولة عن القيام بمعظم عمليات الاغتيال السياسى التى شهدتها مصر فى أعقاب ثورة مارس ١٩١٩ التى لم تقتصر هذه المرة على المسئولين المصريين بل تعدتها إلى القيادات البريطانية فى مصر مدنية كانت أو عسكرية . وقد كان اغتيال سيرلى ستاك السردار البريطانى للجيش المصرى فى نوفمبر ١٩٢٤ آخر حلقاتها . ولا تستمد تلك الحادثة أهميتها فقط من كونها أصابت الكبرياء البريطانى فى الصميم عندما نجحت فى النيل من أحد كبار قادته . وإنما ترجع – فيما ترجع – إلى أنها وضعت حداً – إلى حين – لذلك الأسلوب السرى الفدائى الذى لجأ إليه قطاع من قطاعات الحركة الوطنية المصرية خلال هذه المرحلة الهامة من تاريخ مصر . عندما كشفت السلطات المحلية – وخاصة البريطانية النقاب عن قادة ومنظمى العمل الفدائى السرى الذى ظل يهدد الوجود البريطانى ويقض مضجعه طيلة الحقبة الماضية .

وإذا كان البعض يرى أن هذا الأسلوب الذى اصطنعه ذلك القطاع من الحركة الوطنية إنما يعد دليلا على عدم جماهيرية القائمين به وأهدافهم وبرامجهم . . ومن هنا فقد وسموه بالأساليب «الإرهابية» ، إلا أن ذلك الوصف لا يفى بحق التحليل العلمى السليم . . فالذى لا جدال فيه أن اتخاذ هذا الأسلوب لم يكن نزوة طائشة لنفر من المصريين . . بقدرما كان نتاجا طبيعيا لظروف موضوعية فرضت نفسها على المشتغلين بالعمل الوطنى ثلاث مرات :

الأولى : عندما أيقن الوطنيون – خلال الحقبة الأولى من القرن العشرين – إنهم بقوتهم الذاتية المحدودة لن يستطيعوا مجابهة الاحتلال وأدواته مجابهة علنية . خاصة بعد أن فقدوا الأمل فى أن يأتيهم عون داخلى أو خارجى من ناحية . ومن ناحية أخرى عندما تصدت لهم السلطتان – الفعلية والشرعية فى البلاد – واستنكرت عليهم حتى تلك المجابهة «العلنية» المحدودة . فراحت تستصدر القوانين

والقرارات التى جردتهم - أو كادت - من مؤيديهم وظهيرهم .

والثانية : عندما حكمت مصر حكما عسكريًا عرفيًا خلال الحرب الأولى وجردتها سلطات الاحتلال من كل صور التعبير العلنية وأدوات النضال المباشر سواء بالقول أو بالفعل .

والثالث : عندما أفلست - أو كادت - قيادات العمل السياسى التى تصدرت قيادة ثورة الشعب القومية فى مارس سنة ١٩١٩ وراحت تتراشق التهم فيما بينها حينا أو يمالئ بعضها الاحتلال بشكل سافر أحياناً . . أو بإبعاد البعض الآخر عن ساحة النضال قسراً حيناً ثالثاً .

لكل ذلك وغيره فإن تلك القيادات السياسية التى توسلت بهذا الأسلوب السرى الفدائى قد وجدت نفسها أمام خيار وحيد لا بديل له . . ومن هنا فإنه لم يعد من العدل الاسترسال وراء تلك المزاعم التى يحلوا لنفر من المشتغلين بالكتابة التاريخية أن يلصقوها بها .

ولهذا فلا جدال - فى تقديرى - فى أن تصريح فبراير ١٩٢٢ والمكاسب الأخرى التى حصل عليها الشعب المصرى من خلال ثورته القومية فى ١٩١٩ تعزى - فيما تعزى - إلى صلابة ذلك القطاع من قيادات الحركة الوطنية الذى اتخذ من العمل الفدائى السرى منهجاً له وأسلوباً . . إذ ليس مصادفة أن ذلك التصريح وما تلاه من نتائج قد صدر بعد أن ترهلت قيادات الثورة وتفرق شملها وكلمتها وأهدافها ، ولم يكن من شىء فى تقديرى ، قد أجبر اللنبى المندوب السامى البريطانى والقائد العسكرى ذائع الصيت - على أن يتحدى وزير خارجيته فى لندن ليجبره على الموافقة معه على إصدار ذلك التصريح - الذى جاء كأول اعتراف رسمى من بريطانيا «العظمى» بمشروعية الاستقلال المصرى - مهما يقل فى حجم ذلك الاستقلال . أقول لم يكن من شىء ليجبر اللنبى على ذلك إلا صلابة العمل الفدائى السرى وتعاطفه إلى الحد الذى بات يهدد - ليس فقط البريطانيين والجاليات الأجنبية فى مصر . . بل كذلك الوجود البريطانى برمته . . ولهذا فقد يكون مناسباً أن نطرح فكرة إعادة تقويم تصريح فبراير ١٩٢٢ والنظر إليه فى ضوء هذه الحقائق الجديدة . . وعدم الوقوف عند حد تلك المزاعم السياسية التى طالما روجها خصوم ذلك التصريح آنذاك . . على اعتبار أن ذلك التصريح كان ولا شك كسباً حقيقيًا للشعب المصرى انتزعه من بين أنياب الأسد البريطانى بصلابته وفدائيته .

وإذا كانت النهاية التى انتهى إليها العمل الفدائى السرى والتى أصابت الحركة الوطنية فى مقتل . . بارتكاب حادث مقتل السردار فى نوفمبر ١٩٢٤ ، ليس فقط قد أطاحت بوزارة الشعب التى كان يرأسها سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ وقائد الجماهير المصرية ، بل وأهم من ذلك كشف خلايا العمل السرى فى مصر . . كما مر بنا . . والتى ظلت بعيدة عن أعين السلطات وعلمهم لفترة طويلة . . مما نجم عنه التنكيل بالقائمين بها ، بل تصفيتها . . فإن ذلك كله ربما لا يرجع إلى خطإ فى ذلك النوع من أساليب العمل أو إلى قصور ذاتى فيه بقدر ما يعزى إلى عنف وضراوة الاحتلال البريطانى . . وضعف

القيادات الرسمية المصرية . كما يعزى أيضا إلى أن أحد المصريين من ضعاف النفوس قد وضع نفسه طائعاً مختاراً تحت خدمة الاحتلال وممثليه . . فكشف بذلك النقاب للمرة الأولى عن تشكيلات العمل السرى ورجاله بعد أن عجزت كل السلطات سواء البريطانية أو المصرية عن التعرف عليها أو الوصول إليها . . الأمر الذى أودى بحياة صفوة نادرة من خيرة شباب الأمة وأبنائها وشل حركتها لفترة قادمة .

واليوم يطيب لى ويشرفنى حقا أن عهد إلىّ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر القيام بمعاونة الأستاذ عبد العزيز على فى كتابة مذكراته ومراجعتها وتقديمها . . وهو الذى يعد بحق رائد العمل الفدائى السرى فى مصر طوال النصف الأول من القرن العشرين . . والذى لعب دوراً بارزاً فى خلق تلك التنظيمات السرية وخاصة منذ عام ١٩١٤ وما تلاها .

والأستاذ عبد العزيز على – أطال الله فى عمره – غنى عن التعريف – فهو أحد قيادات الحزب الوطنى المبرزين . . والذى شغل منصبا وزاريا خلال الفترة ما بين ٧ سبتمبر ١٩٥٢ وديسمبر من نفس العام كوزير للشئون البلدية والقرية – فى أول وزارة مدنية شكلت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ . كتقدير للدور البارز الذى لعبه فى تنظيم وتخطيط وتنفيذ العمل السرى فى مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين . . والذى كان له دور كبير فى تشكيل الخلايا السرية فى مطلع الأربعينيات – باعتراف الرئيس أنور السادات أحد قادة ثورة ٢٣ يوليو والتى أسفرت فى النهاية عن قيام جماعة « الضباط الأحرار » الذين قادوا حركة يولية ١٩٥٢ .

وقد قمت بالتعاون مع سيادته بمراجعة وتحقيق مذكراته الشخصية – التى نضع القسم الأول منها اليوم بين أيدى القراء والتى تتناول تاريخ حياته ودوره فى العمل السرى حتى عام ١٩٥٢ والتى سيعقبها القسم الثانى من المذكرات . . ويتناول الفترة اللاحقة منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٧٥ . . وقد استغرق عملى فى هذه المذكرات فترة نصف عام منذ نوفمبر ١٩٧٥ حتى مايو ١٩٧٦ .

وأود هنا أن أشير إلى الدور الكبير الذى قام به من سبقونى فى معاونة سيادته فى كتابة هذه المذكرات بل فى دفعه – على تردده الشديد – إلى تدوينها – ويقف فى مقدمة هؤلاء أستاذى الدكتور محمد أحمد أنيس عندما كان يتولى مسئولية الإشراف على مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر – وكذلك محمود زهدى الباحث بالمركز الذى دأب على الالتقاء بالأستاذ عبد العزيز على فترة ليست بالقليلة انتهى مع سيادته خلالها بكتابة المذكرات فى شكلها الأول . . وقمت معه بعد ذلك بضبط وتحقيق ومراجعة كل ما كتبنا مراجعة علمية حرصت خلالها على أن أحتفظ للمذكرات بشكلها وأسلوبها ومادتها دون ما تدخل من جانبى ، اللهم إلا فى تصحيح أو ضبط أو تحديد عندما كان يستلزم الأمر ذلك ، كما أنى من ناحية أخرى قمت بإجراء العديد من التحقيقات التاريخية مع سيادته حول قضايا تاريخية بعينها استكمالا للموضوع وتوضيحاً لبعض جوانبه حتى تكتمل الصورة ويستقيم البناء التاريخى .

وأود أن أشيد فى هذا الصدد بوطنية الاستاذ عبد العزيز على الصادقة وإيمانه المطلق وسعة علمه ومداركه ورحابة صدره وشمولية نظراته التى كانت جميعها مسئولة عن نجاته . . دون غيره من القائمين بالعمل السرى الفدائى وخاصة فى العشرينيات – من الشنق أو الإعدام – واحتفظت لنا به ليلقى أضواء كاشفة على العمل السرى الفدائى بشكل دقيق وعلمى وصادق للمرة الأولى .

كما أرجو أن أوضح أن الأستاذ عبد العزيز على عندما كتب مذكراته – أو بمعنى أدق ذكرياته – قد كتبها برؤيته هو من منظور عضو فى الحزب الوطنى – ولا يزال يؤمن عن يقين – بأفكاره وبرامجه وأساليبه . . ومن هنا فقد يجد القارئ بين ثنايا المذكرات ثمة وجهات نظر ذاتية قد يختلف معها أو لا يوافق عليها . . غير أنه تجدر الإشارة من ناحية أخرى إلى أن ذلك لم يحل دون أن تلتزم المذكرات فى مجموعها بالتحليل الموضوعى والنظرة الشمولية والرؤية الصادقة لفترة من أخصب فترات نضالنا الوطنى وصفحة مشرقة من صفحات تاريخ الأمة المصرية – أضفى عليها صاحب المذكرات من روحه وإخلاصه ووطنيته ما جعلها صفحة حية تنبض . . ودرساً فى الوطنية لأجيال قادمة .

ولا يفوتنى أن أنوه بالشكر للقائمين على مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر وخاصة مديره الأستاذ عبد الحميد سليم وكذلك الأستاذ الدكتور محمود الشنيطى وكيل وزارة الثقافة لاحتضانهما فكرة تحقيق ونشر مذكرات القادة والزعماء والساسة ورجال الحكم فى مصر الذين لعبوا أدواراً متفاوتة فى تاريخها الحديث والمعاصر لتسهم مع غيرها من المصادر التاريخية فى كتابة ذلك التاريخ كتابة علمية موضوعية . . ومن محاسن المصادفات أن تكون مذكرات الأستاذ عبد العزيز على باكورة هذا المشروع العظيم الذى تبنته وزارة الثقافة ويتولى تنفيذه مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر .

فإذا كنا قد وفقنا فذاك حسبنا ، ، ،

مدينة نصر فى ١ / ٥ / ١٩٧٦

دكتور

(عبد الخالق محمد لاشين)